حصاد 2021

## ثقافة سورية تُشبه وصفاً للمشهد نفسه

# بعيداً عن سنوات الزّخم

لا يختلف العام الثقافي المنقضي عن الأعوام السورية الماضية: ركودٌ وغيابٌ للمقولات الجديدة، مع استثناء مستمر للفنون البصريّة. أمّا الثقافة، بمعناها الأوسع، فتعرف لحظةً حرجة مع انشطارها لثقافات تروّج لها السلطات التي تتحاصص تراب البلد

محمود الحاج

منذ سنواتٍ والكِتابة عن الثقافة السورية، وعن سورية بشكل عام، تُشبه وصفاً للمشهد نفسه. مشهدٌ يُبدي نفسه من زاوية مختلفة، تارةً، أو تحت أسماء وتسميّات مختلفة للأشياء نفسها، تارةً أُخرى. أمّا الجوُّ العام، فهو راكدٌ تقريباً. ليس فقط ضمن حدود البلد ـ الذي تتوالد داخلَه حدودٌ أُخرى تقسّم مناطقه الخاضعة لسيطرات و«ثقافات» مختلفة ـ، بل حتّى عند السوريين الذين يُقيمون في منافيهم المختلفة، وإن كان هذا الرّكود، خارج سورية، أقلّ رسوخاً من ذلك الذي تعرفه مُدن ومحافظات البلد.

الفضل في هذا الفرق يعود، بلا شكّ، إلى الهامش الواسع نسبياً من الحرّية الذي يجده سوريّو الخارج مقارنةً بأبناء بلدهم الذين تُؤطّر إمكانيّاتهم قبضةُ النظام الأمنية والعسكرية و«رؤيتُه» البعثية للثقافة. يعود الأمر أيضاً إلى وجود مؤسّسات وبِنىً تدعم مشاريعهم وتستقبلها، وخصوصاً في القسم الغربيّ من المعمورة، حيث رأينا، خلال العام المنقضي، صدور كُتب بحثية وأدبيّة لسوريين لدى مؤسّسات ومعاهد ودور نشر فرنسية أو بريطانية أو ألمانية، كما شهدنا تنظيمَ معارض فنّية احتفت بها وسائلُ الإعلام الثقافية في هذه البلدان، وولادةَ مشاريع في المسرح، وكذلك محاولاتٍ جنينية في صناعة الكتاب أو في عرضه.

رغم ذلك، تبقى اشتغالات السوريّين الموزّعين في بلدان اللجوء فقيرةً على ضوء ما كان يمكن تقديمه ضمن المتاح من الحرّية والدعم (وهما مشروطان، في عديدٍ من الأحيان، بالتناسق مع الخطاب السياسي القائم في البلد المستضيف، هذا إن لم يكن بالإعلاء من قيَمه). هي اشتغالاتٌ مبعثرةٌ بالعموم، بعيدةٌ عن تشكيل مقولات جديدة، أو عن اقتراح خطابٍ يمكن النظر إليه بوصفه خطاباً ثقافياً سوريّاً جديداً. أي أنّ ما اعتدناه في السنوات الماضية تكرّر في 2021 أيضاً: الاجتماع السوريّ، في معناه السوسيو ـ ثقافي، ممزّق؛ والاشتغال الثقافي، بدوره، غير قادر على قلْب صفحةٍ وبدء أُخرى. بل الأسوأ أنّ «البعثية»، هذه التي ما تزال تُطبق على أنفاس ومخيّلات وممكنات السوريين المقيمين داخل البلد، تتمظهر أحياناً ـ تحت أشكالٍ من التفكير والإدارة والعمل الجماعي ـ لدى المهجّرين والمنفيين من المشتغلين في الثقافة، الذين يُفترض أنهم يُعارضون، في أغلبيّتهم العُظمى هذه العقلية والنظام الذي يُديمها.

بخلاف ما جرى مع أغلب بلدان المعمورة، لم يكن ينقص سورية الاصطدامُ بحائحة كورونا لتعرف الركود الثقافيّ الذي عرفته في العام الماضي. حالة التصحّر هذه تُسَجَّل منذ أعوام سبقت ظهور الفيروس، أي منذ توقّف المدّ الثقافي الذي رافق السنوات الخمس الأولى من الثورة، والذي حمل معه محاولاتٍ وأفكاراً وأفلاماً ومسرحيّاتٍ ومعارضَ، قُدِّم أغلبُها خارج البلد. اليوم، لا شيء تقريباً يمكن تلمُّسه من كلّ هذا الحِراك، بل إنه يبدو أشبه بذكرى بعيدة.


سكنٌ لأطفال سوريين فقدوا آباءهم، إدلب، تشرين الثاني/ نوفمبر الماضي (Getty)

وحدها الفنون البصرية كالتجهيز والتشكيل، ربما، تُستثنى من هذا: تكاد تكون المجال الوحيد الذي جاء بقولٍ سوريٍّ جديد، والذي لم يتوقّف المشتغلون فيه عن المحاولة والاقتراح.

نُكثر هنا من استخدام مفردة «ركود» التي قد تبدو غامضةً من دون تثبيت مقصدِها. فلنعرّفها، في سياقنا هذا: غيابُ الحدث أو المنتَج الثقافي اللافت، الرّصين، الذي لا يولّد إعجاباً استثنائياً فحسب، بل يدفع أيضاً إلى التفكير انطلاقاً منه وبسببه؛ الذي يفتح آفاقاً ويبني، ربّما، لما قد يأتي.

تحدّثنا، حتى الآن، عن الثقافة السورية في معناها الإبداعي، الإنتاجيّ، وليس باعتبارها ظاهرةً اجتماعية. تحدّثنا عنها بالمفرد، وكأنّه أمرٌ بديهيّ أن تكون للسوريين ثقافةٌ واحدة اليوم. لكنّ ما خُشيَ في السنوات الماضية بات يتمظهر، يوماً بعد آخر، كواقع يفرض نفسه. أي أنّنا بتنا، ربّما، إزاء ثقافاتٍ، لا ثقافة واحدة. أو أنّنا في طور الذهاب نحو نتيجةٍ مؤسفةٍ كهذه. ذلك أن ما يعيشه السوريون الذي يخضعون لسُلطةٍ ما ـ سُلطة نظام الأسد، سلطة الإسلاميّين أو سلطة المليشيات الكردية ـ، وما يُقدَّم لهؤلاء من قيَم ودعاية ومنتج ثقافي، يختلف عمّا يعرفه الذين يعيشون تحت سُلطةٍ أُخرى. وما يُلقَّن بالملعقة لأبناء هؤلاء يجهله أبناء أولئك، الذين يُلقَّنون قيَماً وتاريخاً قد يكون آخَر. ثمّة، بلا شكّ، سورياتٌ وسوريون واعون لعمل الماكينات الدعائية. لكنّ صوت الماكينة الدعائية يغطّي على أصواتهم، كما يصمّ آذانهم.

> لم يكن ينقص سورية الاصطدام بحائحة كورونا لتعرف الركود

> المدّ الثقافي في أولى سنوات الثورة يبدو اليوم كذكرى بعيدة

هكذا، يفتح نظام الأسد أبواب المناطق التي يسيطر عليها للروس بنُسختهم البوتينية (وأحياناً للإيرانيين بنُسختهم الخامنئية)، الذين يأتون ليكمّلوا بدعايتهم، مقترحه الثقافي الهزيل. 2021 كان «حافِلاً» بعناصر «الرَّوْسنة»، «رَوْسنة» سورية، التي تبدو مشروعاً أكثر جِدّيةً ممّا اعتُقِدَ. فهي لا تتوقّف عند ضمّ موانئ ومناطق سورية، بل تسعى إلى خلق تحوير أو إعادة صياغة في المخيال والعقل ـ في المجتمع والثقافة. تفعل ذلك عبر عروضٍ أدائية ومسرحية وسينمائية، وعبر افتتاح أقسام لغةٍ في الجامعات، وإصدار كُتب ومعاجم توزّع مجّاناً أو بأسعار زهيدة، لنشْر صيغةٍ بوتينية من ثقافةٍ كنّا لنَسْعَد بمعرفة السوريين لها في شكلها الأوسع، اللابوتيني ـ أي باعتبارها ثقافةً لأمثال دوستويفسكي وبولغاكوف وتاركوفسكي وباختين ـ، وفي سياقٍ آخر غير هذا السياق الذي المفروضً بقوّة السّلاح.

وفي حين يعتقل الإسلاميون، في المناطق التي يسيطرون عليها، الثورةَ السورية وطموحاتها وتسمياتها، ويقدّمون إلى السوريين المقيمين تحت سُلطتهم إيديولوجيا مفارقة لما طمحوا إليه في يومٍ ما؛ فإنّ الماكينة الإعلامية التي تديرها المليشيات الكردية، في مناطق سيطرتها، لا تتوانى، هي الأُخرى، عن «تثقيف» الناس بحسب رؤيتها إلى المنطقة والعالم، وبحسب المعجم الذي تريد تعميمه في «شمال وشرق سورية»، كما تُحبّ وسائل إعلامها أن تصف منطقة سيطرتها.

## علاماتٌ للأمل

إنْ كان الرّكود الصفةَ الأبرز للثقافة السورية في العام الماضي، فإنّ ذلك لم يمنع من ملاحظة بعض التغيُّرات والتوجّهات الجديدة، وولادة مشاريعٍ ما تزال جنينيةً وتحتاج متابعةً في السنوات القادمة. من ذلك ازديادٌ نسبيّ في الأعمال الفكرية التي تتناول مسائل سورية راهنة في مجالات الفلسفة أو عِلم الجمال أو الفكر السياسي، وظُهور ميلٍ إلى السرد التوثيقي، وتشكيل فرقٍ مسرحية سورية جادّة، ولا سيّما في المنفى الأوروبي.



الأردن

## وزارة ثقافة في ثلاث نسخ

# فوضى شعارات في واقع محبط

تدّعي الحكومة الجدّية في تطوير مشروع ثقافي أردني، لكنّ تغيير ثلاثة وزراء ثقافة في عام واحد يقول العكس، خصوصاً أن لكل منهم «نظرة» مختلفة

عمّان ـ محمود منير

جانب من مدينة عمّان، في أيلول/ سبتمبر 2021 (Getty)

حتى بداية آذار/ مارس 2021، واصل وزير الثقافة الأردني الأسبق، باسم الطويسي، اجتماعاته للتبشير باستراتيجيته التي تتبنّى تحويل الأفكار الإبداعية إلى أعمال جماهيرية موجّهة إلى جميع المواطنين من أجل الانتقال من حالة الاستهلاك السلبية كي يصبحوا منتجين للفنّ والفكر، وتصدّرت اهتماماته إعادةُ إحياء صندوق دعم الثقافة الذي كان من المفترض إطلاقه خلال العام الماضي مموّلاً من القطاع الخاص.

الطويسي، الآتي من الحقل الأكاديمي والبحثي، أمضى في موقعه قرابة العام، قبل أن تشهد الحكومة تعديلاً وزارياً أطاح بجميع خططه، ليتولّى الحقيبة علي العايد، الذي شغل منصب سفير الأردن لدى العدو الصهيوني بين عامَيْ 2006 و2010، ولاقى تعيينه انتقادات كتّاب ومثقّفين أبدوا خشيتهم من اختراق لسياسات الوزارة التي ظلّت بمنأى عن التطبيع.

لكن الأشهر السبعة التي قضاها العايد اقتصرت على الإدلاء بتصريحات عامّة حول إعادة الفرح الذي سلبته جائحة كورونا، لتحلّ العضو الأسبق في مجلس الأعيان هيفاء النجار في المنصب منذ تشرين الأول/ أكتوبر الماضي، والتي حطّمت أرقاماً قياسية في رعاية وافتتاح فعاليات رسمية وأهلية، واعتبرت في مقابلات صحافية أن «كلّ مواطن أردني مثقّف»، وأن المضيّ بمشروع مستقبلي للثقافة الأردنية يحتاج شراكة مع جميع الوزارات. لكنّ تلك الشراكة المنشودة لم تجد طريقها للتطبيق حتى اللحظة.

ثلاث نسخ من الشعارات التي رفعتها الوزارة في عام واحد فقط أكّد خلاله الوزراء الثلاثة جدّية المؤسّسة الرسمية في تنفيذها، إلّا أن أوّل المشكّكين بتلك الجدية، ربّما، هم موظّفو «الثقافة» الذين يعلمون قبل غيرهم أن وزيراً يُعَيَّن كلّ عام منذ أن أصبحت الوزارة مستقلّة عن حقيبة الإعلام عام 1988، حيث تعاقب عليها ثلاثة وثلاثون وزيراً، وأن نظرة الدولة العميقة لها لا تتعدّى كونها حقيبة هامشية تُمنح لبعض الشخصيات تحقيقاً لتوازنات عشائرية ومناطقية وطائفية.

> لا وجود للثقافة في ظلّ احتكار السلطة وغياب منظومة رقابية

وسِجلُّ العديد من هؤلاء الوزراء حافلٌ بالطُّرَف والمفارقات التي تعكس جهلهم بالثقافة أو إدراكهم لمبدأ الترضية وتوزيع المكرمات الذي يمنحهم منصباً في حكومات لم تُنتخب على مدار قرن مضى، إنما تُسَمّى من علٍ ولم تُقَدَّم واحدة منها للمحاسبة على تقصيرٍ أو أخطاء اقترفتها، بل يتمّ تعديلها أو استبدالها بأخرى لامتصاص أيّ احتجاج شعبي أو رغبة في تقليب الوجوه والشعارات.

ورغم أن الوزارة تضع، منذ تأسيسها، هدفاً وطنياً عامّاً يتمثّل في «بناء جيلٍ قدر على الإبداع والابتكار ذي إنتاجية مرتفعة»، إلّا أنه لا يمكن تحديد آليات عمل واضحة لتحقيق هذه الغاية في بلدٍ تغيب عن مدارسه الفلسفة والفنون بجميع أشكالها، من مسرح وموسيقى وتشكيل ورقص، أو في بلد لم يُنشئ، حتى اليوم، مسرحاً وطنياً يقدّم عروضاً على مدار العام، أو مركزاً متخصّصاً بالترجمة، ولم يطوّر الأوركسترا الوطنية، أو يُنشئ داراً وطنية للنشر، وغيرها من المشاريع الأساسية.

النص الكامل على الموقع الالكتروني



لبنان

## وحده الصراخ السياسي والمعيشي هو الطاغي

# ما يصعب علينا قوله

السياسة هي المقابل، بل الوجه الآخر لما نعتبره ثقافة في بلد لا يزال في بحث عن نفسه، بحث هو باستمرار سؤال عن معناه وحقيقته

عباس بيضون

يمكن القول إنّ السياسة، السياسة المعلَنة والمضمرة، السياسة البروبغاندية والسياسة المساجلة والسياسة الواقفة على الأطلال والسياسة المتراجعة إلى بدايات العصر وحتى إلى عصور ماضية وربما سحيقة وربما ما قبل تاريخية أو عائدة إلى بداوة مثابرة... يُمكن القول إنّ السياسة، السياسة التي ترجع إلى سلف أو لا تعود إلّا إلى لحظتها، هي المقابل، بل الوجه الآخر لما نعتبره ثقافة في بلد لا يزال منذ نشأته في بحث عن نفسه، بحث هو باستمرار سؤال عن معناه وحقيقته، بل هو، بالدرجة نفسها، محاولة لإيجاد نظرية له وفلسفة تُفسّر وجوده وتستخلص من هذا الوجود رؤية شاملة أو كونية.

الحال أنّ النقاش اللبناني يوازي تاريخ البلد الذي ليس مليئاً بالأزمات فحسب، بل هو عامر بالشكوك في حقّ البلد بالوجود بل وحقيقة وجوده، ومعنى هذا الوجود. هذه الشكوك جعلت النقاش الموازي لها صاخباً وغنياً وعامراً، بقدر ما جعلته، بالدرجة نفسها، سراباً وهوائياً. جعلته يبدو محواً متواصلاً وعَوداً مثابراً على بدء وكلاماً علوياً ومثالياً. بل جعلت منه على طول الخط بلاغة فحسب، وأبنية مزخرفة، بل وتنميقاً واستعراضاً أدبياً وفصاحة بحتة. لقد كان هذا وراء أدب وتفلسف خاصّين إلى حدٍّ بعيد.

وإذا كان من صفات لهذه الخصوصية فهي كونها قدرت على أن تقيم توازناً أو إن شئنا مزاوجة بين عربيّة خاصّة، عربيّة تعود ولا تعود إلى التراث العربيّ الأدبيّ بوجه خاص، بدون أن تكون تراثيّة، بمعنى أنّها خارج التراث وداخله، أنّ لها في ذلك تراثيّتها الخاصة بحيث يمكن القول إنّها تصنع في العربيّة حيّزها الذي يمتُّ إلى الماضي، مع القدرة على أن ينكره، القدرة على أن يكون في ذات الوقت، تجديداً وتقليداً. لكنه في ذلك كلّه يطلق، حتّى من التراث، طاقات مخزونة فيه ويقدر على أن يوجد فيه لعبته الخاصّة. إنّه ينتمي إلى التراث الإسلامي والقرآني بدون أن ينتمي إلى الموروث العربي، مع قدرة على جعله يبدو أجنبياً أيضاً، ومع تلك القدرة على إطلاق طاقات كامنة فيه ومزاوجتها.


تمثال لـ حياة ناظر من مخلّفات انفجار مرفأ بيروت

مع استلهام أجنبيّ، ذلك الاستلهام الذي يطلق طاقات حرّة في التراث نفسه الذي تجري أجنبته مع حفْظ للتراث فيه.

يمكننا هنا أن نفكر بجبران وسعيد عقل. الآن وفي زمن الحروب نسأل إلى أين وصلت الثقافة؟ لنقُل إنّ هذه الثقافة باتت لصيقة بثقافة، جعلتها سياسويتها المباشرة والدعوية غالباً، أو الحربية، جعلتها أقلّ ادعاء وأقلّ تفلسفاً وأقلّ صناعة وحرفية، أي أكثر دعوية وخطابية، وبالتالي أكثر ابتذالاً وفضائحية وعدوانية. هذا لا يمنع أنّ من الناحية الأُخرى، سعى جانب منها أمام أسئلة الحرب والأزمات المتفاقمة إلى إعادة طرح المسألة اللبنانية بذكاء أكبر وقدرة أكثر على التنظير والتحليل. كان لهذا فضله على اللغة وعلى المصطلح وعلى الأدب نفسه.

على مستوى آخر نسأل: أين صار الأدب؟ وأين صار الفن؟ لا يمكننا أن نجزم في هذا المجال. الشعر لدى الأجيال الجديدة يسعى إلى الخروج من فخاخ البلاغة وأحياناً الخروج من قوقعة اللغة نفسها.

> الآن وفي زمن الحروب نسأل: إلى أين وصلت الثقافة؟

الرواية تغدو أكثر شوارعيّة. تعود إلى الشارع، إلى المدينة. الرسم بدوره يخرج من عباءات، لا الروّاد فحسب، ولكن أيضاً المعلّمين العالميّين. في الموسيقى لا يزال الرحابنة الكبار، وعاصي بخاصّة، وبعدهم الابن زياد هم أساتذة التجديد في الموسيقى العربية. الدراسات تحظى أحياناً بأثر مهم في النادر، لكن ما هو أكيد أنّ أسئلة الفكر والبحث تتراجع تحت وطأة الظرف. هذا لا يمنع أنّها من جانب آخر قد تخترق ذلك وتطرح أسئلة وإشكاليّات جديدة وأصيلة ومبتكرة.

بكلمة أخيرة ربّما يصعُبُ قولُها، إنّ الوقت ليس للسجال، وربما ليس للثقافة كلّها. وحده الصراخ السياسي والمعيشي هو الطاغي.

(شاعر وروائي من لبنان)

## إضاءات

أثّرت الأزمة الاقتصادية وتداعيات انفجار مرفأ بيروت عام 2020 على **المشهد الثقافي اللبناني** في العام الماضي، إذ تمحورت أكثر الفعاليات حولهما. كما شهد العام رحيل الروائي **جبّور الدويهي** في تمّوز/ يوليو عن عُمر ناهز 72 عاماً (الصورة)، ورحيل الموسيقار **إلياس الرحباني** مطلع العام عن 83 عاماً.

حمل نبأ إغلاق **مكتبة نوبل** في دمشق صدمة لدى مثقّفين سوريّين استعادوا ذاكرة مكتبات دمشقية واجهت الخيار ذاته، خلال العشرية الأخيرة، في بلد يحاصره الاستبداد والدمار والفقر. وفقدت البلاد شخصيات بارزة؛ من بينها المغنّي **صباح فخري** (الصورة) الذي رحل في 8 تشرين الثاني/ نوفمبر، والكاتب **ميشيل كيلو** في 19 نيسان/ إبريل، والكاتب **حسان عباس** في 7 آذار/ مارس.

واصلت حملات مقاطعة الكيان الصهيوني أنشطتها في عام أُطلقت فيه مبادرات مثل **موسيقيون من أجل فلسطين**، التي أدانت انتهاكاتِ الاحتلال ضدّ الشعب الفلسطيني. ورحل الشعراء **مريد البرغوثي** في 14 شباط/ فبراير، و**عزّ الدين المناصرة** في 5 نيسان/ إبريل، و**محمد الأسعد** (الصورة) في 21 أيلول/ سبتمبر.

استحوذت الاحتفالية بـ **مئوية الدولة** على معظم أنشطة العام الماضي في الأردن، كاشفةً فقر الأرشيف الرسمي والإصرار على تغييب محطّات من تاريخ البلد عن الدراسة والتوثيق. ورحل فنّانان من مؤسّسي التشكيل الأردني: **مهنّا الدرّة** (الصورة) في 24 كانون الثاني/ يناير، و**رفيق اللحّام** في 30 تمّوز/ يوليو.